وإن شاء منع ، فلا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، وهى طلاقة المشيئة ، فى حدود حكمة الله عز وجل، فلا تقل حين يمنع: إنه لم يحقق قوله: ﴿فَسوفَ يُغْنيكُمُ اللهُ من فَضْله﴾ لأن الإغناء كما يكون بالمادة، يكون أيضاً إغناء بالقيم. ويؤكد هذا قَوْلَه سبحانه وتعالى: ﴿ إنَّ اللهَ عليمٌ حكيمٌ ﴾ أى: عليم بالأمر الذى يصلح لكم ، حكيم فى وضع العطاء فى موضعه والمنع فى موضعه.

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ ﴾

وهنا يعود الحق سبحانه وتعالى إلى التحدث عن القتال، ونعلم أن الذين تحدث عنهم المولى سبحانه فى هذه السورة، هم المشركون وأحوالهم، والأمر بإلغاء المعاهدة معهم، وإبعاد ذواتهم عن المسجد الحرام، وتقتيل من يحاول البقاء منهم ليحض على الشرك؛ حتى لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان [1] .

وعرفنا من قبل السبب، وأما الذين يتحدث عنهم الله فى هذه الآية فهم غيرهم. . . فرغم أن الحق سبحانه وتعالى أرسل لمشركى العرب محمداً ﷺ

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال : «لا يترك بجزيرة العرب دينان» . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٢٧٥) قال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٣٢٥) : «رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن اسحاق وقد صرح بالسماع».

وهو رسول من أنفسهم، فهم يعرفونه حق المعرفة، كما أن المعجزة التى جاء بها ﷺ من جنس فصاحتهم، فإذا كذبوه فهم مخطئون، ورغم هذا كذبوه ولم يؤمنوا به، أما خارج الجزيرة فالرسول ليس منهم، والقرآن لم ينزل بلغتهم، وكان عليهم أن يأخذوا من المنهج التطبيق المناسب. وهكذا نرى أن مصادمة الإيمان لم تكن من مشركى مكة فقط، بل كانت أيضاً من بعض يهود المدينة وبعض من نصارى نجران ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد حدد فى هذه السورة موقف الإيمان من المشركين به ، فقد أراد أيضاً أن يحدد موقف الإيمان من أهل الكتاب.

ونحن نعرف أن هناك فرقاً بين أهل الشرك وأهل الكتاب، فالمشركون لم يكونوا يؤمنون بالله إلهاً واحداً بل معه شركاء، ولكن أهل الكتاب يؤمنون بالإله ويؤمنون برسول وكتاب سماوى، وهم بذلك أقرب إلى الإيمان. ولذلك نجد القرآن الكريم يعرض لنا مثل هذه القضية كطبيعة فطرية، فنجد أن النبى ﷺ قد حزن هو وصحابته حين غُلبتْ الروم فى أدنى الأرض[1]. لماذا حزن الرسول ﷺ وهو يعلم أن الروم سيقفون أيضاً ضده ؟ لقد حزن ﷺ لأنهم يؤمنون أن للكون خالقاً واحداً وأن له رسلاً يوحى إليهم وأن له كتباً منزلة، لكن الأمر يختلف بالنسبة للمشركين ،فهم يكفرون بالله وهذا قمة الكفر. صحيح أن بعضاً من أهل الكتاب وقفوا مع المشركين فى موقف العداء

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان ، فذكر ذلك المسلمون لأبى بكر رضى الله عنه فذكر ذلك أبو بكر للنبى ﷺ فقال له النبى ﷺ : أما إنهم سيهزمون فذكر أبو بكر لهم ذلك فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهروا كان لك كذا وكذا وإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا فجعل بينهم أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر للنبى ﷺ فقال: ألا جعلته ـ أراه قال : دون العشرة ـ قال : فظهرت الروم بعد ذلك فذكر قوله تعالى ﴿ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ قال : فغلبت الروم ثم غلبَتْ بَعْدُ ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ قال سفيان : وسمعت أنهم ظهروا يوم بدر . أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٩٣) وقال : حسن صحيح غريب . والحاكم فى مستدركه (٢/ ٤١٠) من حديث ابن عباس وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبى .

لرسول الله، لكن قلبه ﷺ معهم لأنهم أهل إيمان بالقمة. ويُسَرِّى الحق عن رسوله ﷺ فيقول:

﴿الٓمٓ ⦗١⦘ غُلِبَتِ الرُّومُ ⦗٢⦘ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ⦗٣⦘﴾ [الروم]

وهنا يبرز سؤال يقول : متى سيغلبون؟ تأتى الإجابة من الحق تبارك وتعالى :

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٤]

والبضع بالنسبة للزمن هو فترة تتراوح من ثلاث لتسع سنوات، ولم يحدد الحق سبحانه وتعالى البضع هنا ؛ لأن المعارك لها أوليات ونهايات، لهذا جاء قول الحق تبارك وتعالى مراعياً لما تستغرقه هذه المراحل كلها، وجاء القول بأن نصر الروم على الفرس سوف يأتى بعد بضع سنين. وبالله قولوا لى: كيف يتحكم نبى أمى فى جزيرة تسكنها أمة أمية، ولا علم لهذا الرسول بأخبار الأمم وكيف لهذا النبى أن يأتى بأخبار نصر أمة على أخرى؟ ويظل هذا الخبر فى الكتاب الذى يحمل منهج رسالته قرآناً يُتْلَى ويتعبد به إلى قيام الساعة ؟ لقد قالها بثقة فى حدوث ما جاء فى القرآن فى المستقبل القريب؛ لأنها جاءته عن ربه، وهو واثق أن قائل هذا الخبر قادر على إنفاذ ما يقول.

وإلا ، فماذا كان يحدث لو أن الرسول ﷺ قال ذلك ثم مر بضع سنين ولم يأت نصر الروم؟ وماذا يكون موقف الذين آمنوا به كرسول من عند الله ؟

إذن: هو ﷺ لم يكن ليجازف وينطقها إلا بثقة فى أن القائل هو الحق سبحانه الذى شاء أن ينزل بالخبر فى آية قرآنية تُتلى، وتُكتب، وتُحفظ، ويُصَلَّى بها فى كل وقت إلى أن تقوم الساعة. وينزلها سبحانه على محمد ﷺ وقت أن كان ضعيفاً لا يعرف ميزان القوى، ولا يعلم هل ستستعد الروم لتنتصر أم لا ؟

ثم ألم يكن من الممكن أن يتصالح الروم والفرس؟ كل ذلك لم يكن فى حسبان محمد ﷺ؛ لأن الخبر جاء من الله وسبحانه القادر على إنفاذ ما يقول.

ألم يكن هناك إخبار عن أمور خالفت النواميس؟ نعم كانت هناك أمور خارجة عن النواميس وجاء بها الخبر من الله سبحانه وتعالى .. ألم يقل زكريا عليه السلام حين بُشّر بالولد:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾ [مريم]

أى: ما دام الله سبحانه وتعالى قد قال فقد تأكد الحدوث.

وكان المؤمنون أقرب إلى الروم لأنهم أهل كتاب؛ ولأن لهم صلة بالسماء، ومن له صلة بالسماء يمتلئ بالحنين إلى أخبار السماء، ويتسمع أخبار المؤمنين فى القمة العقدية. ومن العجيب أن هذه الآية تصدق فى الروم وفارس، فينتصر الروم على الفرس، وتصدق فى محمد ﷺ وأصحابه، فينتصر رسول الله وأصحابه فى بدر. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم]

وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾ [التوبة]

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد وصفهم هنا بأنهم لا يؤمنون بالله مع أنهم أهل إيمان. والمعنى أنهم لا يؤمنون بالله الإيمان الذى يعطى الله جلال

الصفات وكمالها؛ لأن بعضهم قال: إن الله له ابن اسمه عزير، وقال البعض الآخر: المسيح ابن الله، إذن فهم لم يؤمنوا بالله حق الإيمان تسبيحاً وتنزيهاً لذاته الكريمة عَمَّا لا يليق بها ، وكذلك يختلف إيمانهم باليوم الآخر عن الإيمان الحق به، إنه إيمان لايتفق مع مرادات الله تعالى ؛ فهم يقولون مثلاً: إن النعيم فى الآخرة ليس مادياً ولكنه نعيم روحي. ونقول: عندما يحدثنا الله عن نعيم الآخرة فلابد أن نعرف هذا النعيم حتى نفهم المعنى، ونتساءل: ما هو النعيم الروحى؟ هل النعيم الروحى هو خواطر فى النفس فقط لا علاقة لها بالحقيقة؟ أيكون هذا هو نعيم الآخرة؟

لقد أوضح المولى سبحانه وتعالى بما لا يدع مجالاً للظن أو الشك أنه قد أعد جنة للمؤمنين وأعد ناراً للكافرين، وحكى لنا الحق سبحانه وتعالى عن هذه الحياة بما فيها من ثواب ومن عقاب؛ بما يقنعنا أن فيها نعيمًا مثل الذى نعرفه، فإذا كان هذا النعيم روحياً ونحن لا نعرف النعيم الروحى ولا نعلم شيئاً عنه، فكيف يغرينا الله عز وجل بشىء لا نعلمه؟ إذن : فإيمان هؤلاء الناس باليوم الآخر ليس إيماناً كما يريده الله.

فسبحانه حين يحدثنا عن الجنة إنما يحدثنا عن أشياء من جنس ما نعرف وليس من جنس ما لا نعرف. وصحيح أن الله سبحانه وتعالى قد بيَّن لنا بعض صور النعيم فى الجنة، وقال : إنها مثل كذا وكذا. قال الحق جل جلاله:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]

إذن : فالله عز وجل يعطى مثلاً فقط . ومعلوم أن اللفظ فى اللغة لابد أن يوضع لمعنى معروف. ولذلك فعندما يحدثنا الله عن نعيم الجنة لابد أن يحدثنا بكلام نعرف معانيه. ورسول الله ﷺ قال عن الجنة:

«فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر»[(١)]

إذن : فلا توجد فى اللغة ألفاظ تعبر عن نعيم الجنة ؛ لأن المعنى غير معروف لنا، ولكن الله أراد أن يحببنا فيها فأعطانا صورة نفهمها عن النعيم، فيقول عز وجل: ﴿ مَّثَلُ الجَنَّةِ﴾ وهو يريدنا أن نعرف أن فيها نعيماً خالياً من كل المنغصات التى تكون فى المثل. فمثلاً الخمر فى الدنيا فيها خصلتان ؛ الأولى أنها تغتال العقول [(٢)] والثانية : أنها لا تشرب بقصد اللذة، والذى يشرب الخمر لايشربها مثلما يشرب كوب عصير المانجو أو عصير الليمون الذى يستطعمه ويشربه على مهل، ولكنه يسكب الكأس فى فمه دفعة واحدة؛ لأن طعمها غير مستساغ وليقلل زمن مرور الخمر على الحس الذائق، ومعنى هذا أن طعمها غير مستطاب، ثم إنها تذهب بوعى الشارب لها فيفقد السيطرة على سلوكه، ويعتذر فى الصباح عما فعل أثناء احتسائه للخمر ويقول خجلاً: «لم أدر موقع رأسى من موقع قدمى » هذه خمر الدنيا، ولكن الخمر فى الجنة لا غَوْل فيها . . أى : لا تغتال العقول، حلوة المذاق، ولذلك يصفها الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [محمد: ١٥]

أى: أنها مختلفة تماماً عن تلك الخمر التى حرمها الله فى الدنيا. وتتجلى الحكمة فى معنى الاستطعام فى قول رسول الله ﷺ:

«ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهنَّ طعم الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه

(١) عن سهل بن سعد الساعدي قال : «شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال ﷺ فى آخر حديثه : فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿تتجافى جُنُوبهم عن المضاجع يَدعُونَ ربَّهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهُم ينفقُون . فَلا تعلَمُ نفسٌ مَا أُخفى لهُمْ من قُرَّة أعين جَزَاءً بماَ كانُوا يعملُونَ ﴾ » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٥) وأحمد (٥/ ٣٣٤) من طريق ابن وَهب عنَ أبى صخر به إلى سهل بن سعد ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٤١٣) من طريق عبد الله بن سويد عن أبى صخر به . وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبى .

(٢) تغتال العقول : تسكرها وتذهب بها .

مما سواهما ، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلْقَى فى النار »[1] .

ومن رحمة الله تعالى بخلقه أنه لم يجعل الطعام وقوداً للطاقة فقط ، بل يغرى الناس على وقود الطاقة لاستبقاء الحياة بأن يستلذ الإنسان الطعام، ويطيل أمد اللذة ساعة تناوله، لا أن ينتظر النفع بعد أن يهضم الطعام. فكأن الإيمان لا يستمر إلا لمن يحب فى الله ويكره فى الله؛ فذلك يعطيه الطاقة التى تستبقى إيمانه؛ كما تستبقى طاقة الطعام حياة الإنسان. وشاء الله سبحانه وتعالى أن يعطينا فى تصوير الجنة المثل لما فى الجنة ، لا بتشخيص وتحديد لما فى الجنة فعلاً ، ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾
[السجدة]

وإذا كانت النفس لا تعلم شيئاً ، فهى لا تملك ألفاظاً تضع فيها ما لا تعلمه، فإذا خاطبها الله تعالى بواقع الجنة فهى لن تفهم، لذلك شاء الحق تبارك وتعالى أن يخاطبها بواقع المثل، فيقول عز وجل:

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) ﴾ [البقرة]

إذن : فهو رزق يشبه الرزق الموجود فى الدنيا ولكن ليس هو [2] ، أما أن

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى (١٦) . ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (١/ ٢٨٤) : ﴿من قَبْلُ﴾ يعنى فى الدنيا ، وفيه وجهان ، أحدهما : أنهم قالوا : هذا الذى وعدنا به فى الدنيا والثانى : هذا الذى رزقنا فى الدنيا ، لأن لونها يشبه لون ثمار الدنيا ، فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك . وقيل ﴿ من قَبْلُ﴾ يعنى فى الجنة لأنهم يرزقون ثم يرزقون ، فإذا أتوا بطعام وثمار فى أول النهار فأكلوا منها ، ثم أتوا منها فى آخر النهار ، قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل ، يعنى أطعمنا فى أول النهار لأن لونه يشبه ذلك ، فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعماً غير طعم الأول.
وقال ابن عباس : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ : هذا على وجه التعجب ، وليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة سوى الأسماء ، فكأنهم تعجبوا لما رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها .

يقال : إن نعيم الجنة هو النعيم الروحى أو نعيم الخواطر أو ما نسميه آمال النفس، كأن يتخيل إنسان جائع أنه أكل كمية كبيرة من اللحم أو السمك؛ فتسعد روحه بذلك من غير واقع يحدث، فكل هذا غير حقيقى، ولكنهم يقولون هذا الكلام؛ لأنهم إذا ما تصوروا نعيم الجنة كالخواطر، فسوف يكون عذاب النار مقابلاً أيضاً لنعيم الجنة، أى سيكون عذاب الخواطر، وفى هذا تصور لعذاب سهل؛ لأنهم يخافون عذاب النار فيريدونه عذاباً روحياً.

ولكن الإحساس بالنعيم والعذاب لا بد أن يكون له واقع يشبهه فى الدنيا، وإلا ما وُجد فى أنفسنا ما يجعلنا نرغب فى نعيم الجنة ونخاف من عذاب النار. لذلكَ فإن نعيم الجنة حق، وعذاب النار حق. وشاء الله سبحانه أن يصفى النعيم من كل الشوائب، فقال عز وجل عن أنهار الجنة:

﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ [محمد: ١٥]

أى: ليس فيه كل الشوائب الموجودة فى عسل الدنيا. وكذلك قال عن لبن الجنة:

﴿وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ [محمد: ١٥]

وكلمة ﴿ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ لها عند العرب أيام رسول الله ﷺ معنى؛ لأن العربى كان يحلب الجمال ويضع ألبانها فى الأوانى، وكان اللبن يتغير طعمه ويصير حامضاً، لكنه كان مضطراً أن يشربه؛ لذلك فحين يسمع ﴿وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ فهو يعطيه المثل من حياته، بعد أن ينقيه من كل الشوائب التى تفسد طعم اللبن فى الحياة الدنيا.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ أى الإيمان الواجب بعظمة الله وتنزيهه. واليهود يؤمنون إيماناً إجمالياً بالله، ولكنهم يُجسِّمونه ويقولون: إنه جلس على صخرة ومد قدميه فى قصعة من الزمرد ثم استنكف الله أن يمد يده لبنى إسرائيل، وهذا تصوير لا يليق بكمال

الله ولا بذاته المقدسة، وهذا خطأ فى التصور. وكذلك كان خطؤهم فى تصور نعيم الجنة وعذاب النار، وبذلك لم يؤمنوا إيماناً حقاً باليوم الآخر، ولهذا جاء قول الحق: ﴿وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وهم لم يقفوا فقط ضد الإسلام كمنهج، بل وقفوا أيضاً من أديانهم مثلَ هذا الموقف، ويقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ ولا يُحرِّمون ما حَرَّمَ اللهُ ورسولُهُ ﴾

وهم كأهل كتاب حرفوا وبدلوا فى دينهم فأحلوا ما حرم الله. ولذلك يقول سبحانه: ﴿ ولا يَدينون دين الحقِّ ﴾

والحق - كما نعلم - هو الشيء الثابت الذى لا يتغير. وإذا نظرنا إلى كل رسول فى عصره؛ نجده قد جاء بالحق ، وإذا جاء رسول من بعده فهو لاينسخ العقائد، ولكنه ينسخ فى الأحكام، وهكذا نعلم أن كل رسول جاء بالعقائد الثابتة وبالأحكام التى تناسب الزمان إلى أن بعث الله محمداً ﷺ ، فكان النبى الخاتم إلى أن تقوم الساعة، ولابد أن يكون الحق الذى جاء به هو الحق الثابت الذى لا يتغير؛ لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين فلا رسول بعده، إذن فقوله: ﴿وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أى: أنهم لايؤمنون حتى بما جاء فى كُتبهم مَن بشارة به ﷺ، وهذا حكم خاص بهم؛ لأن المشكلة معهم أنهم لم يصدقوا بلاغ رسول الله ﷺ عن الله و أنه مرسل إليهم، وسَنَّ رسول الله ﷺ فى معاملتهم ما شرعه الله تعالى، وذلك أن يعاملوا معاملة مختلفة عن المشركين، فمعاملة المشركين كانت براءة من العهد، وإبعاداً عن المسجد الحرام، وقتالاً إن وجدناهم، أو أن يسلموا. أما معاملة رسول الله ﷺ مع أهل الكتاب فكانت: إما أن يسلموا، وإما أن يعطوا الجزية مع استبقاء الحياة، ولذلك قال الحق تبارك وتعالى:

﴿ حَتَّى يُعْطُوا الجزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

أي: حتى يؤدوا ما فُرض عليهم دفعه من أموال مقابل حصولهم على الأمان والحماية، وفي هذا صون لدمائهم، ولذلك نجد أن المسلمين قد فتحوا بلاداً غير إسلامية وصاروا قادرين على رقابهم ولم يقتلوهم، بل أبقوا عليهم، وإبقاء الحياة نعمة من نعم الإسلام عليهم، وهناك نعمة ثانية وهي أنه لم يفرض عليهم ديناً، وإنما حمى اختيارهم الدين الذي يرونه، وفي ذلك رد على من يقول: إن الإسلام انتشر بالسيف، ونقول: إن البلاد التي فتحت بالمسلمين أقرت أهل الأديان على أديانهم، وحمت فقط حرية الاختيار، بل وقف المسلمون بالسيف أمام القوم الذين يقفون أمام اختيار الناس، وتركوا الناس أحراراً. لكننا نجد المغالطات تملأ كتابات الغرب حول مسألة السيف. ونرد دائماً أن الإسلام لو انتشر بالسيف لما وجدنا في البلاد التي فتحها أناساً باقين على دياناتهم، بل كان الإسلام يأخذ الجزية ممن بَقَوْا على دياناتهم من أهل الكتاب. وأخْذُ الجزية دليل على أنهم ظلوا على دينهم وظلوا أحياء، وهاتان نعمتان من نعم الإسلام، وكان يجب أن يؤدوا جزاء على ذلك، وكان الجزاء هو الجزية. وهي مادة «جزى» و«يجزى». فكأن الجزية فعلة من «جزى» «يجزى»؛ لأن الإسلام قدم لهم عملاً طيباً بأن أبقى على حياتهم وأبقاهم على دينهم من غير إكراه، فوجب أن يُعطوا جزاء على هذه النعمة التي أنعم الله تعالى بها عليهم بالإسلام.

وأيضاً، فإنهم سيعيشون في مجتمع إيماني؛ الولاية فيه للإسلام، ويتكفل المسلمون بحمايتهم وضمان سلامتهم في أنفسهم وأهلهم وفي أموالهم وفي كل شيء، فإذا كان المسلم يدفع لبيت المال زكاة تقوم بمصالح الفقراء والمسلمين، فأهل الكتاب الموجودون في المجتمع الإسلامي ينتفعون - أيضاً - بالخدمات التي يؤديها الإسلام لهم، ويجب عليهم أن يؤدوا شيئاً من مالهم نظير تلك الخدمات، والإسلام مثلاً لا يكلف أهل الكتاب أن يدخلوا جنداً في حرب ضد أي عدو للمسلمين إلا إذا تطوعوا هم بذلك، إذن: فالجزية ليست فرض قهر، وإنما هي مقابل منفعة أداها الإسلام لهم؛ إبقاءً على

حياتهم وإبقاء على دينهم الذى اختاروه ، وقرر الحق أن يعطوا الجزية ﴿عَنْ يَد﴾ واليد هى الجارحة التى تُؤدَّى بها الأعمال ، وأغلب الأعمال إنما تُزَاوَلُ باليَد ، ونجد القرآن الكريم يقول :

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٥]

واللسان أيضاً آلة الكلام، والحق تبارك وتعالى يجازى على القول الطيب أو السيىء، ولكن الأصل فى العمل هو « اليد »، وتطلق اليد ويراد بها القدرة التى تعمل، أو يراد بها النعمة، مثل قولنا: فلان له يد على فلان، وفلان له أياد بيضاء علىَ الناس .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الجزْيَةَ عَنْ يَد ﴾ .

فهل المقصود بـ ﴿ عَنْ يَد ﴾ أى من يُعْطُونَ الجزية، أم أيدى الآخرين الآخذين للجزية ؟

إن هذا القول: ﴿ عَنْ يد ﴾ مثلما يقال: فلان نفض يده من هذا الأمر، أى خرج عن الأمر ولم يعد يعاون عليه . إذن يكون معنى ﴿ عَنْ يَد ﴾ أى غير رد للنعمة . وعن يد منهم أى من المعطين للجزية، أو ﴿ عَنْ يَد ﴾ أى: يداً بيده فلا يجلس الواحد من أهل الكتاب فى الأمة الإسلامية المحكومة بالإسلام فى مكانه ويرسل رسولاً من عنده ليسلم الجزية، لا، بل عليه أن يدفعها ويحضرها بيده.[1] أو نقول: ﴿ عَنْ يَد ﴾ من معنى القدرة، فمن عنده قدرة، فنأخذ الجزية من القادر ولا نأخذها من العاجز[2] .

إذن: يشترط فى اليد إن كانت منهم ثلاثة ملاحظ؛ الملحظ الأول: أن

(١) قوله تعالى ﴿عَنْ يَد﴾ قال ابن عباس : يدفعها بنفسه غير مستنيب فيها أحداً . وقيل ﴿عَنْ يَد﴾ عن إنعام منكم عليهم؛ لأنهم إذا أخذت منهم الجزية فقد أنعم عليهم بذلك . قال عكرمة : يدفعها وهو قائم والآخذ جالس، وقاله سعيد بن جبير، انظر تفسير القرطبى (٤ / ٤٢ . ٣) .

(٢) عن عروة بن الزبير قال: مرَّ هشام بن حكيم بن حزام على أناس من الأنباط (فلاحو العجم) بالشام . قد أقيموا فى الشمس، فقال: ما شأنهم؟ قالوا: حُبسوا فى الجزية . فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦١٣) وأحمد فى مسنده (٣/ ٤٠٤) وأبو داود فى سننه (٣٠٤٥) .

يكونوا موالين لا نافضين لأيديهم منا ومن حكمنا، والملحظ الثانى: أن يأتى بها بنفسه لا أن يرسل بها رسولاً من عنده، وإن جاء بها لابد أن يأتى بها وهو ماش وأن يعطيها وهو واقف ومن يأخذ الجزية قاعد، وهذا هو معنى ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. ولماذا يعطونها عن صغار؟ لأن الحق عز وجل أراد للإسلام أن يكون جهة العلو، وقد صنع فيهم الإسلام أكثر من جميل، فلم يقتلهم ولم يرغمهم على الدخول إلى الإسلام؛ لذلك فعليهم أن يتعاملوا مع المسلمين بلا كبرياء ولا غطرسة، وأن يخضعوا لأحكام الإسلام، وأن يكونوا موالين للمسلمين، لا نافضين الأيدى، وأن يؤدوا الجزية يداً بيد، وأما العاجز وغير القادر فيعفى من دفع الجزية [1].

﴿ حتَّى يُعطُوا الجزْيَةَ عَنْ يد وهُمْ صَاغرونَ ﴾ والصَّغَار من مادة الصاد والغين والراء، وتدل على معنيينَ؛ إن أردتها عن السن يقال « صَغُر »« يَصْغُرُ» مثل قولنا: فلان كبر يكبر. وإن أردتها فى الحجم والمقام نقول « صَغِر » «يصغَر»، أى: صغر مقاماً أو حجماً، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥]

وهنا فى قوله: ﴿ حتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَد وهُمْ صَاغِرُون ﴾ تعنى أن يؤدوها عن انكسار لا عن علو، حتى إنَّ من يُعطى لا يظن أنه يعطى عن علو، ونقول له: لا، إن اليد الآخذة هنا هى اليد العليا.

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا حيثيات قتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فقال بعد ذلك:

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٤١): «قال علماؤنا: أما عقوبتهم إذا امتنعوا من أدائها مع التمكن فجائز، فأما مع تبيّن عجزهم فلا تحل عقوبتهم، لأن من عجز عن الجزية سقطت عنه، ولا يكلف الأغنياء أداءها عن الفقراء. وروى أبو داود عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم أن رسول الله ﷺ قال: «من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ شيئاً منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة». الحديث أخرجه أبو داود فى سننه (٣٠٥٢).

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

هذا الادعاء فيه مساس بجلال الله تعالى، فالإنسان يتخذ ولداً لعدة أسباب؛ إمَّا لأنه يريد أن يبقى ذكْره في الدنيا بعد أن يرحل ، والله سبحانه دائم الوجود ؛ وإمَّا لكي يعينه ابنَه عندما يكبر ويضعف، والله سبحانه وتعالى دائم القوة؛ وإما ليرث ماله وما يملك، والله تبارك وتعالى يرث الأرض ومن عليها. وإما ليكون عزوةً له، والله جل جلاله عزيز دائماً. وهكذا تنتفى كل الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى هذا الادعاء. ولا يعقل أن يرسل الله سبحانه رسولاً ليبين للناس منهج الحق فإذا به يقول للناس: إنَّه ابن الله . إذن فهم لم يؤمنوا الإيمان الكامل بالله.

ويسوق الحق تبارك وتعالى قول كل من اليهود والنصارى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُود عُزَيْرٌ ابنُ الله وقالت النَّصارَى المسيحُ ابنُ الله ﴾.

وهكذا نجد أنهم لم ينزهوا الله وأخلُّوا بالإيمان الحق. ولابد أن نعلم أن من قالوا: إن عُزَيْراً ابن الله ليسوا هم كل اليهود، بل جماعة منهم فقط هى التى جعلت عُزَيْراً ابناً لله لما رأى أفرادها على يديه نعمة أفاءها الله تعالى عليه، فقالوا: هذه نعمة عظيمة جداً لا يمكن أن يعطيها ربنا لشخص عادى، بل أعطاها لابنه. ذلك أن اليهود بعد سيدنا موسى عليه السلام قتلوا الأنبياء، وعاقبهم الله بأن رفع التوراة من صدور الحافظين لها، ولكن طفلاً لم يعجبه

مشهد قتل الأنبياء فخرج شارداً فى الصحراء مهاجراً وهارباً، فقابله شخص فى الطريق فسأله: لماذا أنت شارد؟ فقال: خرجْت أطلب العلم. وكان هذا الشخص هو جبريل عليه السلام، فعلَّمه أن لله توراة، فحفظها فصار واحداً من أربعة، هم فقط من حفظوا التوراة: موسى، وعيسى، وعزير، واليسع، ولأن الكتب قديماً لم تكن تكتب على ورق رقيق مثل زماننا، بل كانت تكتب على الأحجار وسعف النخيل، لذلك كان وزن التوراة يقدر بسبعين حمْل بعير، وحين رجع عزير حافظاً للتوراة، اندهش قومه وقالوا: لابد أنه ابن الله ؛ لأن الله أعطاه التوراة وآثره على القوم جميعاً [1]. ونشأت جماعة من اليهود تؤمن بذلك، وكان منهم سلاَّم بن مشكم، وشاس بن قيس، ومالك ابن الصيف، ونعمان بن أوفى. وحينما أنزل الله قوله: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ ﴾ لم ينكر اليهود المعاصرون لهذا النزول تلك المسألة ولَم يكذبوها، فكأن هناك من اليهود الذين كانوا بالمدينة من كان يؤمن بذلك، وإلا لاعترضوا على هذا القول، وهذا دليل على أن ما جاء بالآية يصدق على بعضهم أو هم عالمون بأن قوماً منهم قد قالوا ذلك. وكذلك قالت النصارى عن عيسى عليه السلام، فجاء قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَتِ النَّصارى المسيحُ ابنُ اللهِ ﴾.

ويتابع الحق: ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ ﴾ فيوضح لنا سبحانه أن البنوة لله جاءت فيها مشبهة، كان يجب أن يلتفتوا إليها وينزهوا الله عن ذلك؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يصف عباده بأنهم عباد الله ، وأن الخلق كلهم خلق الله تعالى.

فالمولى سبحانه وتعالى وهو الخالق والقادر على كل شيء خلق كل الخلق

---

(١) انظر قصة العُزير هذه فى تفسير القرطبى (٤/ ٣٠٤٣) وابن كثير (٢/ ٣٤٨). والعزير هو نبى من أنبياء بنى إسرائيل وهو الذى ضربه الله مثلاً لإحياء الموتى فى قوله تعالى: ﴿أو كالذى مرَّ على قَرْيَة وهى خَاوِيةٌ عَلَى عُرُوشِها قال أنى يُحيى هذه الله بعْدَ موتها فَأماتَهُ الله مائة عام ثُمَّ بعثهُ. . . ﴾ (البقرة: ٢٥٩).

قال ابن كثير فى قصص الأنبياء (ص ٣٨٠): «روى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ لم قالوا ذلك؟ فذكر له ابن سلام ماكان من كَتْبه لبنى إسرائيل التوراة من حفظه، وقول بنى إسرائيل: لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا فى كتاب، وإن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب. فرماه طوائف منهم وقالوا: عزير ابن الله».

من عدم ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً. ولكن الشبهة عند بعض من أتباع المسيح جاءت من أنه أوجدَ من دون أب، ونقول لهم: لو أن هذا الأمر جاء لكم من هذا الطريق، فكانَ من الأولى أن تجيء ذات الشبهة فى خلق آدم؛ لأن قصارى ما فى المسيح أنه جاء من غير أب، ولكن آدم جاء من غير أب ومن غير أم، فأيهما كان أولى أن يكون ابن إله؟

ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ إنَّ مثَل عيسى عند الله كمثَل آدَمَ ﴾. والحق سبحانه وتعالى يخلق الشيء - أى شيء - بأسباب، وكل الأسباب مخلوقة له، والولد منا - فى جمهرة الناس - ينشأ من اجتماع الأب والأم، والشيء المردود بين شيئين له صور منطقية أربعة: إما أن يوجد بوجود شيئين ذكر وأنثى، وإما أن يوجد بانعدام الشيئين مثل آدم، وإما أن يوجد بوجود واحد من الشيئين وهو الذكر مثل حواء، فقد خلقها الله من آدم مصداقاً لقوله: ﴿وَخلقَ منها زَوجها ﴾ ، وإما بوجود واحد من الشيئين وهى الأنثى وخلق عيسى عليه السلام منها بدون وجود الذكر. وليعلمنا الله سبحانه وتعالى جميعاً أن الأسباب لا دخل لها فى التكوين، وأن المسبِّب هو القادر على أن يوجد من غير أب وأم كما أوجد آدم، وأن يوجد من أب وأم كما أوجد جمهرة الناس، وأن يوجد من أم دون أب كما أوجد عيسى، وأن يوجد من دون أم كما أوجد حواء.

إذن: فالقسمة دائرة بقدرة الله وإرادته، ولا دخل لأحد إلا إرادة الحق سبحانه وتعالى، فالأسباب ليست هى الفاعلة فى ذاتها، بل إرادة الخالق سبحانه هى الفاعلة، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى]

أى: قد يوجد الذكر والأنثى ولا يعطى لهما الحق عز وجل أولاداً، وهذه

طلاقة قدرة من الله تعالى، فإياك أن تقول إنها بأسباب، بل سبحانه وتعالى يَهَبُ لمن يشاء إناثاً، ويهب لمن يشاء ذكوراً، ويجمع لمن يشاء بين الذكور والإناث، ويجعل من يشاء عقيماً، وكان استقبال الناس للمواليد يختلف؛ فالعرب كانوا يحبون إنجاب الذكر؛ لأنه قوى ويحقق العزوة ويركب الخيل، ويحارب الأعداء. ولم يكونوا يحبون إنجاب الفتاة لأنها قد تأتى منها الفضائح، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ .. (٥٩) ﴾ [النحل]

وجاء الإسلام ليوضح: أنه مادام لا دخل لك فى الإنجاب والإنسال، فَدع الأمر لمن يهب الأبناء. وقد سمى الحق تبارك وتعالى الأبناء « هبة » ليذكرك أن الإنجاب شيء أعطاه سبحانه لك بلا مقابل منك، فالذكور هبة، والإناث أيضا هبة. فلا تفضل تلك الهبة عن هذه الهبة. ودائماً أقول للذى ينجب بنات، ويذهب هو وزوجته إلى الأطباء: لو استقبلتم هبة الله فى الإناث كما تستقبلونها فى الذكور، فإن الحق سبحانه وتعالى يجزيكم جزاء لا يخطر لكم على البال، فيحسن الله كل ابنة لكم فى عين رجل صالح ويتزوجها، فإن كُن عشر بنات فهُنَّ يأتين بعشرة رجال أزواج يعاملون الأب والأم لكل زوجة معاملة الأب والأم، وهكذا يرزق الله من يرضى بقسمة الله فى الإنجاب، ويصبح أزواج البنات أطوع من الأبناء الذكور، فالذى يرضى بالهبة فى الإناث يوضح له الله: رضيتَ بهبتى فيك ولم تكن على سنة العرب من كراهة الإناث؛ لذلك أهبك من أزواج البنات أبناء لم تتعب فى تربيتهم ويكونون أكثر حناناً وولاءً من أى أبناء تنجبهم أنت. ولذلك إذا ما وجدت إنساناً قد وُفّقَ فى زيجات بناته، من رجال يصونون أعراضهم ويحسنون معاملة أهل الزوجة، فاعلم أن الأب قد استقبل ميلاد الأنثى بالرضا؛ لأنها هبة الله.

ويقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ ويجعل من يشاء عقيماً (٥٠) ﴾ [الشورى]

إذن: فالعقم أيضاً هبة إلهية؛ لأن الإنسان إذا ما استقبل العقم برضا الله ؛ لَوَجَد في كل رجل يراه ابناً له؛ لأنه استقبل الهبة في المنع برضا، مثله مثل من استقبل الإناث كاستقبال الذكور. إذن: مادامت المسألة هبة من الله فيجب أن تستقبل عطاء الله ومنعه بالرضا.

وعيسى عليه السلام جاء بنسبة طلاقة القدرة من الخالق سبحانه وتعالى؛ لأن القسمة العقدية والعقلية لا تتم إلا به، ولن تتكرر؛ لأن آدم وُجِدَ أولاً، ومن وجدوا بعد آدم جاء كل منهم من أبوين، وكذلك حواء وُجِدت من قبلهم، فهذه ثلاث صور قد وجدت في الكون وبقيت صورة ناقصة، هي أن يوجد إنسان من أم دون أب، فأتمها الله عز وجل بعيسى عليه السلام:

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾

وقول الحق ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى القول بأن المسيح ابن الله أو عزير ابن الله، ويضيف الحق عز وجل توضيحاً ﴿ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾. ونسأل: وهل يوجد قول بغير أفواه ؟ إن كل قول إنما يكون بالأفواه؛ حتى قول المؤمنين بأن الله واحد وأن محمداً رسول الله هو قول بالأفواه. ونقول: هناك قول بالفم فقط دون أن يكون له معنى من المعاني، وهناك قول بالفم أيضاً وله معنى، إلا أنه غير حقيقي، وكاذب.

ولنعرف أولاً: ما هو القول؟ إنه كلام يعبر به كل قوم عن أغراضهم؛ كأن تقول للطفل: اجلس، ولابد أن يكون الطفل فاهماً لمعنى الجلوس، وإن قلتها بالعربية لطفل إنجليزي فلن يفهم معناها.

إذن: فاللغة ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، والغرض هو معنى متفق عليه بين المتكلم والسامع، ولابد أن يعرف الاثنان ما يشير إليه اللفظ من

موضوعات. فإن لم يعرف السامع اللفظ الذى يتكلم به المتكلم فهو لا يفهم شيئاً.

وهكذا نعلم أن الفهم بين المتكلم والمخاطب يشترط فيه أن يكونا عليمين باللفظ، فإذا تكلم متكلم بشىء لا علم للسامع به؛ فهو لا يفهم. وكانوا يضربون لنا المثل قديماً بعلقمة النحوى وكان مشهوراً فى النحو والألفاظ واللغة، ويتقعر فى استخدام الكلمات، ولا يتكلم إلا باللغة الفصيحة الشاذة التى لا يعرفها الناس، وكان عند علقمة خادم، فمرض علقمة النحوى مرة وذهب إلى طبيب اسمه « أعجز » ليشكو له علة عنده، وقال علقمة للطبيب: قد أكلت من لحوم هذه الجوازىء فقصأت منها قصأة أصابنى منها وجع من الوابيــة إلى دأية العنق، ولم يزل يمنى حــتى خــالط الخلب وأملت منه السراسيب. ولم يكن الطبيب متخصصاً فى اللغة ولا معاجم عنده، فوقف مستغرباً من كلمات علقمة وقال له: أعدْ علىَّ ما قلته فإنى لم أفهم، فأعاد علقمةعليه ما قاله بغضب ولوم لأنه لم يفهم لغته، وعرف الطبيب تقعر علقمة فقال له: هات القلم والورقة لأكتب لك الدواء، وكتب له: خذ حرقة وسلقة ورهرقة واغسله بماروس واشربه بماء ماء. فقال علقمة: أعدْ علىَّ فوالله ما فهمت شيئاً، فقال الطبيب: لعن الله أقلَّنا إفهاماً لصاحبه. وعرف علقمة أنه متقعر فى اللغة ويأتى بألفاظ ليست من الألفاظ الدائرة على ألسن الناس. وقال أساتذتنا لنا: ولم يؤدبه عن هذا إلا غلامه أى خادمه، فقد استيقظ علقمة ذات ليلة وقال: يا غلام أصعقت العتاريف، ولأن الغلام لم يفهم فقد رد قائلاً: زقفيلا، وقال علقمة للغلام: وما زقفيل؟ قال: وأنت ما أصعقت العتاريف؟ فقال له: يا بنى لقد أردت أصاحت الديكة؟ فقال: وأنا أردت لم تَصِحْ.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ إذن: القول هو اللفظ الملفوظ من الفم، وهذا القول إمَا أن يكونَ له معَنى، وإما ليس له معنى. مثل كلمة « زقفيل » التى قالها خادم علقمة، هذه الكلمة ليس لها

وجود فى اللغة فهى قول باللسان ليس له معنى . وقد يكون القول له معنى ؛ إلا أنه كلام باللسان لا يؤيده واقع ، فهو كذب .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ يحتمل الأمرين . إما أنهم يقولون كلاماً لا يقصدونه ولا يعرفون معنى ما يقولون ، والمثال : أن نقول : « كتب » ، وهى كلمة مكونة من الكاف والتاء والباء ، ويمكن أن نستخدم ذات الحروف فنقول : « كبت » وهى نفس الحروف أيضاً ولها معنى . أو نقول : « تكب » وهو لفظ غير مستعمل ، وهو كلام بالفم ولا معنى له فى اللغة ، بل هو لفظ مهمل . فإذا قال إنسان كلاماً له معنى فهمناه مثل قول : « زيد كان بالأمس بالمكان الفلانى » وهنا زيد معلوم ، والمكان معلوم ، وأمس معلوم . لكن زيداً لم يذهب إلى ذلك المكان ، وبذلك يكون القول فى حقيقته كذباً لم يحدث . ويكون كلاماً بالفم ، ولا واقع له فى الحياة .

إذن : فالقول بالفم إما أن يكون لا معنى له أبداً ، فيستعمل كلفظ مهمل لا وجود له فى اللغة ، وإما أن يكون له معنى فى ذاته إلا أنه ليس له واقع يؤيده .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. ④ ﴾ [الأحزاب]

والله سبحانه يقول :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ .. ④ ﴾ [الأحزاب]

هذا إذن كلام لا وجود له فى الواقع ، فالزوجة لا تصير أمّاً لزوجها والولد المتبنى لا يكون ابناً للرجل أو المرأة ، لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب : ٥]

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) ﴾

[الكهف]

أي : أن هذا القول منهم كلام له معنى في اعتقادهم ، ولكن ليس له واقع ، ولذلك قال المولى سبحانه وتعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي : لا واقع لهذا القول يسنده فهو كذب .

﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ وهل هذا القول بالأفواه أهم ابتكروه أم ابتدعوه ؟ إن الحق سبحانه يوضح لنا : ﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾ أي : أنهم لم يأتوا بهذا التصور من عندهم ، بل من شيء له واقع ، فقد قال المشركون ما أورده الحق على ألسنتهم :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا (١٩) ﴾ [الزخرف]

فقد توهم المشركون أن لله تعالى بنات والعياذ بالله – وسبحانه منزه عن ذلك ، في ذلك يخاطبهم المولى ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴾ – إذن : فهذا كلام قديم ؛ لذلك قال الحق عنهم : ﴿ يُضَاهِئُونَ ﴾ أي : يشابهون ويماثلون الذين من قبلهم حينما قالوا مثل ذلك ، كما أن البوذية في الصين واليابان قالت ببنوة الإله والحلول وقد حفظ بعضهم من هؤلاء ، ولم يطرأ جديد من ألسنتهم ، وهم كما وصفهم القرآن الكريم ﴿ يُضَاهِئُونَ ﴾ أي : يشابهون ويماثلون به قول الذين كفروا من قبل ، و« المضاهاة » هي المماثلة والمشابهة ، وقالوا : إن مادتها مأخوذة من امرأة « ضَهْيَاء » [1] وهي التي ضاهت وشابهت

(١) قال في لسان العرب : امرأة ضَهْيأ ، وهي التي لا يظهر لها ثدي ، وقيل : هي التي لا تحيض ، فكأنها رجل شبهاً .

الرجل ، فى عدم الحيض أو الحمل أو الولادة ، وهى بذلك تكون شبيهة بالرجل .

﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الذينَ كَفروا من قَبْل ﴾ والتعقيب هنا إنما يصدر من الحق تبارك وتعالَى عليهم ، ولم يتركه الحَق لنا ، وساعة تسمع : ﴿ اتخذَ اللهُ ولَدًا ﴾ فالفطرة الإنسانية تفرض أن يقول السامع لهذا الكلام: قاتلهم الله كيف يقولون هذا ؟ وشاء الحق هنا أن يتحملها عنا جميعاً ؛ لأننا إن قلنا نحن : « قاتلهم الله أو لعنهم الله » فلا أحد منا يضمن استجابة الدعاء عليهم ، فالأمر قد لا يتحقق ، ولكن حين يقولها الحق سبحانه وتعالى . فتكون أمراً مقضياً . لذلك يقول الحق : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ، وما معنى قاتلهم الله ؟ أنت إذا رأيت فعلاً قبيحاً من فرد ، تقول: قاتله الله . لأن حياته تزيد المنكرات ، ومثال ذلك من يسب أباه ، يقول من يسمعه « قاتله الله » بينما يقول الإنسان منا لإنسان يفعل الخير: « فليعش هذا الرجل الطيب » ؛ لأنك ترى أن حياته فيها خير للناس .

وقول الحق : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ ﴾ أى لعنهم وطردهم ، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ، وكلمة ﴿ أَنَّى ﴾ ترد بمعنيين ، فمرة تعنى « من أين ؟» ، ومرة أخرى تعنى « كيف ؟» ، والمثال على معناها الأول قول الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا زكريا لما دخل على مريم البتول (١) :

﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ [آل عمران: ٣٧]

قال ذلك لأنه رأى عندها أشياء من الخيرات لم يأت بها إليها ، مع أنه هو الذى يكفلها ،والمفترض فيه أن يأتى لها بمقومات حياتها ، وعندما دخل عليها ووجد شيئاً هو لم يأت به ، سألها: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ أى : من أين لك هذا؟ فأجابت مريم المصطفاة بما جاء فى القرآن الكريم :

(١) البتول من النساء : المنقطعة عن الرجال لا أرب لها فيهم ، وبها سميت مريم أم المسيح . ويقال : البتول هى المنقطعة إلى الله عز وجل عن الدنيا .

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

[آل عمران : ٣٧]

وجاء الحق بهذه الكلمة لتخدم أموراً إيمانية كثيرة جداً ، وجاء بها على لسان مريم المصطفاة ؛ لأن المسألة ليست مجرد طعام يأتيها من مصدر لا يعلمه البشر حتى من هى فى كفالته . بل هى تقديم لما سوف يحدث . فلا تظن أن الأمور تسير سير المسألة الحسابية بأسباب ومسببات ، وعلل ومعللات، ومقدمات ونتائج ، بل هى بإرادة الله تعالى؛ لأنها لو كانت من عند الإنسان لفعلها بحساب، ولكن الحق سبحانه وتعالى يعطى بلا حساب؛ لأنه خالق الأسباب ، وهو قادر على أن يخلق المسبَّب على الفور :

﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧]

وحين أنطق الحق سبحانه وتعالى مريم بهذا إنما كان ليوضح لها ولزكريا فى آن واحد: إنك يا زكريا تأتى لها بالرزق فى حدود قدراتك وحساباتك البشرية، ولكن الله يأتيها بالرزق بغير حساب ، وهو ما لا تستطيع أن تأتى به قدرات البشر ، فقد يكون الرزق الذى رآه سيدنا زكريا عند سيدتنا مريم لوناً من الأطعمة لا يأتى إلا فى الصيف ، بينما كان الوقت شتاء ، أو العكس ، وقد يصح أن هذا الرزق ليس فى بلادهم مثله ،ولذلك قال : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ هو قضية تربوية اجتماعية بمعنى أن الكفيل على قوم حينما يرى عندهم أشياء لم يأتِ بها هو، وجب عليه أن يسأل عن مصدرها، فحينما ترى فى يد ابنك قلم حبر غالى الثمن وأنت لم تحضره له، لا بد أن تسأله: من أين جئت به ؟ وذلك لتعرف التأثيرات الخارجية عليه ، هل سرقه ؟ أم أن أحداً أراد استدراجه إلى غرض سيئ فأغراه بهذا القلم ؟

لا بد إذن أن تسأل ابنك: من أين لك هذا ؟ وكذلك إن رأيت ابنتك ترتدى ثوباً لم تأتِ لها به ولا أتت به أمها بعلمك ، لا بد أن تسأل ابنتك: من أين

لك هذا ؟ وهذه القضية إن سيطرت على كل بيت من بيوتنا فلن يحدث فى البيوت ما يشينها ، لكننا للأسف الشديد نرى فى بعض البيوت طفلاً يدخل ومعه قطعة من الشيكولاتة ، ولا تسأله الأم: من أين لك هذا ؟ بل تربت عليه وتأخذ منه قطعة من « الشيكولاتة » لتأكل معه . لكن الأم التى تجيد التربية تماماً تسأل الابن : من أين أتيت بها ؟ حتى تعرف هل ثمنها مناسب لمصروف يده أم لا ، فإن لم تجد أنه قد جاء بهذه «الشيكولاتة» من مصدر معلوم لها وحلال فهى تحذره وتضرب على يده .

ولا بد لنا أن نعلم أن قانون: « من أين لك هذا ؟» يحكم العالم كله ؛ لأنه يتحكم فى التربية الاجتماعية كلها . وقد سبق الإسلام العالم بأربعة عشر قرناً حين أنزل الحق تبارك وتعالى قوله: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ ، وأجابت سيدتنا مريم الإيجاب الإيمانى ، وأوضحت لسيدنا زكريا عليه السلام: أنت تتكلم بحسابك ولكنى أتكلم بحساب الله تعالى ؛ لأن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، أنطقها الحق ذلك لأن هذا القول سوف يخدم قضايا عقدية متعددة فى الكون :

القضية الأولى : أنها ساعة أن قالت :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

نبهت زكريا إلى قضية عقدية ، وهى أن الله سبحانه وتعالى غير محكوم بالأسباب ، وسبحانه يعطى بلا حساب ، ونظر زكريا إلى نفسه متسائلاً: ما دام الله عز وجل يعطى بغير حساب ، وأنا قد بلغت من الكبر عتياً ، وامرأتى عاقر ، فلماذا لا أطلب منه أن يعطينى الولد ؟

إذن: فقد نبهت مريم سيدنا زكريا عليه السلام ولفتت نظره إلى قضية عقدية ، وهى أن الله يعطى بلا أسباب ، وبلا حساب ، فدعا الله أن يرزقه غلاماً فلما بشره الحق بالغلام تساءل: كيف يرزق بالغلام وامرأته عاقر ، وهو قد بلغ من الكبر عتياً ؟ وجاءت الإجابة من الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٩]

وهكذا انتفع زكريا بعطاء الله بالابن، ولم يكتفِ الحق سبحانه وتعالى بذلك، بل تكفل عن زكريا بتسميته، ولله ملحظ في تسميته، ونحن نعلم أن الناس تسمى الوليد الصغير بأسماء تتيمن بها [1]، مثل أن يسمى رجل ابنه «سعداً» رجاء أن يكون سعيداً، وقد يسمونه «فارساً»، رجاء أن يكون فارساً، ويسمونه «فضلاً» رجاء أن يكون كريماً، ويسمون الفتاة «قمراً» لعلها تكون جميلة. إذن: فالتسمية باسم يحمل معنىً شريفاً على أمل أن يكون الوليد هكذا، وهناك شاعر كان أولاده يموتون بعد الولادة ، فجاءه ابن وسمَّاه يحيى، فمات هذا الابن أيضاً فقال الشاعر متحسِّراً :

سَمَّيْتُه يَحْيى لِيَحْيا فَلَمْ ... يكُنْ لرد قضاء اللهِ فيه سَبِيلُ

إذن : فالتسمية بالاسم الشريف، أو بالاسم الذى يدل على الشىء المؤمَّل هو رجاء أن يكون الوليد هكذا، لكن المسمى لا يملك أن يكون سعيداً ، ولا أن يكون فارساً، ولا أن يعيش؛ لأن الذى يملك كل ذلك هو الله سبحانه وتعالى، فإذا كان الله هو الذى سمى يحيى ، فلابد أن يكون الأمر مختلفاً ؛ لأن الذى يملك هو الذى سمَّى، فهل سيعيش يحيى بن زكريا كالحياة التى نحياها وفيها الموت مُحتَّم على الجميع؟ نعم؛ لذلك شاء له الله أن يموت لتبقى حياته موصولة إلى أن تقوم الساعة. وهكذا رأت سيدتنا مريم آثار ذلك منذ أن قال لها زكريا عليه السلام ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ وأجابت :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

---

(١) عن على بن أبى طالب قال : «لما ولد الحسن سميته حرباً ، فجاء رسول الله ﷺ ، فقال : أرونى ابنى ما سميتموه ؟ قال : قلت حرباً ، قال : بل هو حسن . فلما وُلِدَ الحسين سميته حرباً . فجاء رسول الله ﷺ فقال : أرونى ابنى ما سميتموه؟ قال : قلت : حرباً ، قال : بل هو حسين » أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٩٨ ، ١١٨) والحاكم فى مستدركه (٣/ ١٦٥ ، ١٨٠) وصححه وأقره الذهبى .

لقد رأت كل ذلك في سيدنا زكريا وفي ميلاد يحيى، وجعل الله كل ذلك مقدمات لها؛ لأنها ستُمتحن في عرضها فهى التى ستنجب ولدا من غير أب، وعليها أن تتذكر دائماً قولها :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

ولذلك تجد القرآن الكريم في قصصه العجيب يقول على لسان مريم :

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [مريم: ٢٠]

وقد بشَّرها الحق تبارك وتعالى بذلك في سورة آل عمران :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾

[آل عمران: ٤٥]

ومادام قد نسبه الله لها فلن يكون له أب، فتساءلت: كيف يكون لي غلام من غير أب. ويُذكِّرها الحق عز وجل بهذا القول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

وقال لها :

﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ [مريم: ٢١]

مثلما قال لزكريا من قبل، إذن ﴿أَنَّى﴾ هذه هى مفتاح الموضوع العقدى كله، في زكريا ويحيى، وفي مريم وعيسى، وهذا هو معنى ﴿أَنَّى﴾ وقلنا إن «أنّى» تأتى بمعنى كيف؟ مثل قول الحق تبارك وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

وسيدنا إبراهيم لا يُكذب أن الله قادر على الإحياء، ولكنه يسأل عن الكيفية، وهنا يقول الحق: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أى : كيف يعدلون عن الحق؟ فالقضية منطقية ، وماكان يصح أن تغيب عنهم، فكيف يُصرَفون عن

هذه الحقيقة التى توجبها الفطرة الإيمانية؟ وكيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟

ويقول سبحانه بعد ذلك عن أهل الكتاب :

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

و«الحَبْر» هو لقب عند اليهود، وهو العالم. ويقال فى اللغة «حبر» أو «حِبْرٌ» أى رجل يدقق الكلام ويزنه بأسلوب عالم. والرهبان عند النصارى والمقصود بهم المنقطعون للعبادة، فالحَبر عالم اليهود، والراهب عابد النصارى، أما عالم النصارى فيسمى «قسيس» ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ [المائدة: ٨٢]

فإن قصدنا عالم الدين المسيحى قلنا : «قسيس» ، وإن قصدنا رجل التطبيق أى العابد قلنا: «الراهب» والراهب هو من يقول: إنه انقطع لعبادة الله فوق ما طلب الله منه من جنس ما طلب، ونعلم أنه لا رهبانية فى الإسلام(١)، ولكن الإنسان يستطيع أن يتقرب إلى الله كما يحلو له من جنس ما طلب الله منه، فإن كان الحق عز وجل قد أمر بإقامة الصلاة خمس مرات

(١) روى الإمام أحمد عن عروة قال : دخلت امرأة عثمان بن مظعون أحسب اسمها خولة بنت حكيم على عائشة وهى باذة الهيئة (أى: رثة الهيئة تاركة زينتها) فسألتها : ما شأنك؟ فقالت : زوجى يقوم الليل ويصوم النهار (أى: أنه منصرف عنها إلى قيامه وصيامه وعبادته) فدخل النبى ﷺ فذكرت عائشة ذلك له فلقى رسول الله ﷺ عثمان فقال: «ياعثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا، أفما لك فىَّ أسوة، فوالله إنى لأخشاكم لله وأحفظكم لحدوده» أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٢٢٦) وابن حبان (١٢٨٨ ـ موارد الظمآن).